قراءات

حين يتكلم البسطاء...

هل للأنثروبولوجيا ما تقوله عن الثورات؟

كتـــــاب يجيـــب

قراءة في كتاب

عندما يثور البسطاء

بـــلال التليـــدي

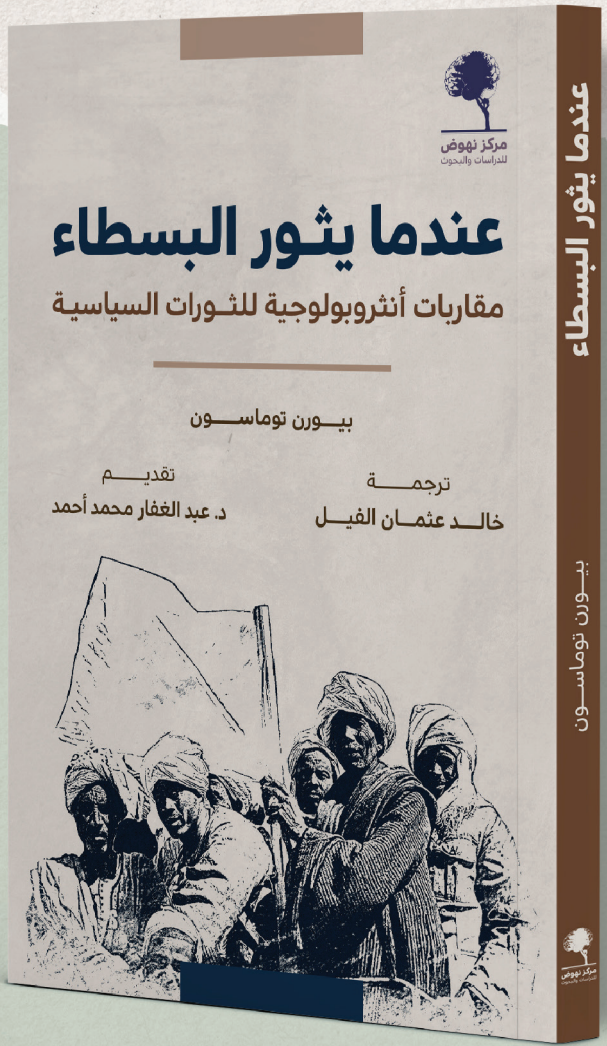

مركز نهوض
للدراسات والبحوث

حين يتكلم البسطاء...

هل للأنثروبولوجيا ما تقوله عن الثورات؟ كتاب يجيب[1]

قراءة في كتاب
عندما يثور البسطاء

بلال التليدي

(1) نشرت هذه القراءة على موقع عربي 21 على هذا الرابط:
https://arabi21.com/story/1682980/حين-يتكلم-البسطاء-هل-للأنثروبولوجيا-ما-تقوله-عن-الثورات-كتاب-يجيب

استأثرت الثورات السياسية باهتمامات بحثية مكثفة من حقول متعددة، لاسيما التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم السياسة. فعلم التاريخ، على سبيل المثال، يعنى بتقديم مادة كثيفة عن وقائع الفعل الثوري، وتجلياته الظاهرة عبر العصور، كما يعنى ببحث تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية في الفعل الثوري، بينما يحاول كل من علم الاجتماع وعلم السياسة التنظير للثورات السياسية، وتفسير بواعثها وشروطها الموضوعية، وذلك بالإفادة مما يقدمه علم التاريخ من معطيات تخص وقائع الفعل الثوري.

لكن الملاحظ أنه على الرغم من كثافة الثورات السياسية التي عرفها العالم في الخمسين سنة الماضية، وذلك في أقطار مختلفة، ومن التغييرات الأساسية التي حدثت في بنية المجتمعات ونظمهم الثقافية، فإن علم الانثروبولوجيا لم يكن له حظ واسع في التعاطي مع موضوع الثورات السياسية، ولم يبدأ الاهتمام به إلا في العقود الثلاثة المتأخرة، إذ لم تطرد الممارسة البحثية الأنثروبولوجية في دراسة الفعل الثوري بالشكل الذي تعاطت به العلوم الثلاثة (التاريخ، علم الاجتماع، علم السياسة) هذه الظاهرة بالرصد والتفسير والتنظير.

الكثيرون حاولوا أن يقدموا تفسيرا لضعف إسهام علم الأنثروبولوجيا في دراسة الثورات السياسية، وأرجعوا الأمر إلى عدم التناسب بين طبيعة علم الأثروبولوجيا الذي يدرس الظاهرة الثقافية في امتدادها الزمني، وبين طبيعة الثورات التي تتسم بالفجائية والعفوية وأحيانا عدم القابلية للتوقع وتمس البنية السياسية.

والحقيقة أن الإسهامات الأنثروبولوجية التي حاولت الاقتراب من موضوع الثورات السياسية في العقود الثلاثة الماضية، والتراكم الذي بدأ يتحقق من خلال تعدد المقاربات، واجتراح المفاهيم الجديدة، ومحاولة تطويرها، فضلا عن البحث عن نماذج تفسيرية، يجعل من التفسير السابق مجرد حجة متجاوزة، إذ ما الذي يبرر تقدم البحث الانثروبولوجي في موضوع الثورات السياسية إن كانت الطبيعة لم تختلف، سواء بالنسبة لموضوع علم الأنثروبولوجيا ورهاناته المنهجية، أو بالنسبة للثورات السياسية.

يمثل هذا الكتاب:" عندما يثور البسطاء: مقاربات أنثروبولوجية للثورات السياسية" مرافعة معرفية قوية حاول فيها مؤلفه بيورن توماسون أن يفسر أسباب تأخر علم الأنثروبولوجيا في التعاطي مع الثورات السياسية، والمداخل التي اجترحها علماء هذا الحقل لتقديم إسهامهم في تفسير هذا الثورات السياسية إلى جانب الحقول المعرفية الأخرى، كما اجتهد في تقديم سردية تطورية لأدبيات ومقاربات منظري الأنثروبولوجيا حول الثورات السياسية، وأهم المفاهيم التي أسسوا لها في دراسة هذا الموضوع، محاولا بذلك دعم فكرة قدرة علم الأنثروبولوجيا على توقع الثورات، وعلى تقديم إضافة معرفية نوعية في دراسة الثورات السياسية.

سيـــاق تأليـــف الكتـــــاب

يعود أصل هذا الكتاب الذي تفضل مركز نهوض للدراسات والبحوث بترجمته، إلى دراسة نشرها مؤلفه بيورن توماسون سنة ٢٠١٢ بدورية جامعة كامبريدج للدراسات المقارنة في التاريخ والاجتماع بعنون: "ملاحظات حول أنثروبولوجيا العلوم السياسية"، وقد شغل المؤلف مهمة أستاذ في قسم المجتمع والعولمة بجامعة روسكيلد الدنماركية، وكان رئيسا لقسم العلاقات الدولية في الجامعة الأمريكية بروما، وقد تعددت اهتماماته البحثية، فشملت الدراسات الحضرية والأبعاد الثقافية والسياسية للعولمة، والقومية والدين، وسياسات الهوية والذاكرة، ثم انعطف في مساره البحثي إل دراسة الثورات السياسية من مدخل أنثروبولوجي.

يأتي سياق تأليفه لهذا الكتاب من سؤال شغل باله، يتعلق بتفسير سبب صمت علم الأنثروبولوجيا عن التعاطي مع موضوع الثورات السياسية وسبب عدم وجود إرث أنثروبولوجي في هذا الموضوع، مع وجود كل الموجبات التي تستدعي انخراطه في تقديم إسهامه المعرفي والمنهجي في تجليل هذه الظاهرة. فالعالم على مدى خمسين سنة عاش موجات متعددة من الثورات، أحدثت تغييرات راديكالية ومفاجئة وغير ذات رجعة في المعايير الاجتماعية والأنظمة السياسية والقيم الثقافية، ومع ذلك خلفت الأنثروبولوجيا إرثا مميزا في دراسة المعارضة

والمقاومة، ولم تترك وراءها أي إرث معرفي في دراسة الثورات السياسية. يسجل المؤلف في سؤاله المؤرق أن الأنثروبولوجيا ــ في موسوعاتها وقواميسها ــ ليس فيها أي مدخلات او مصطلحات متعلقة بالثورات السياسية، فالأدبيات الأنثروبولوجية تتحدث عن التغيير الاجتماعي في الفترات التاريخية الطويلة الأمد، وتتحدث عن الثورات المعرفية، التي مست حتى حقل الأنثروبولوجي نفسه، لكنها لا تشير إلى الثورات السياسية، ويسجل أيضا بأن العلوم التي تركت بصماتها في دراسة الثورات السياسية هي علم التاريخ وعلم السياسة وعلم الاجتماع، وأنها طورت في سياق تراكمي أدوات منهجية ناجعة لدراسة هذا الموضوع خلافا للأنثروبولوجيا.

ويلاحظ المؤلف مفارقة مثيرة للدهشة بخصوص تجاهل الأنثروبولوجيا لدراسة الثورات السياسية، فطبيعة الأنثروبولوجي الميال أكثر للوقوف بجانب "الشعوب" و"الناس" على حساب البني المؤسسية، ترك المساحة فارغة لتهيمن عليها العلوم الثلاثة، وتسيطر على منطقة البحث المركزية المتعلقة بالثورات السياسية.

بل إن المفارقة تأخذ أبعادا أخرى حين تكون مادة الثورة الأولى هي البسطاء الذين يشكلون محور التعبئة والتحرك السياسي، وهؤلاء في واقع الأمر يمثلون الاهتمام الرئيس للدراسات الأنثروبولوجية.

على أن الأمر لا يتوقف عند حدود هذه المفارقات المدهشة، بل يتعداه إلى ما هو أبعد من ذلك، فالأنثروبولوجيون كانوا جد متعاطفين مع حركات التحرير الاجتماعي والسياسي، خاصة في البلدان والمجتمعات التي عانت ويلات الاستعمار وآثار ما بعد الاستعمار، وكانوا يحتفظون بميل وانجذاب طبيعي إلى الثورات السياسية، ومع ذلك، هيمنت العلوم الأخرى على موضوع الثورات السياسية، وتجاهل علم الانثروبولوجيا هذا الموضوع، وأبطأ الخطى نحوه.

في أسباب عدم مشاركة علم الأنثربولوجيا في دراسة الثورات

يقدم المؤلف سردية مهمة بأهم الأعمال والأدبيات التي قدمها منظرون في الحقل الأنثروبولوجي في دراسة الثورات السياسية، وقد حاول أن يمسك بنقطة بداية دخول موضوع الثورة إلى أغلب الدراسات الأنثروبولوجية، في تسعينيات القرن العشرين، وذلك كنتيجة طبيعية للتغييرات التي طالت كثيرا من الأنظمة السياسية حول العالم في ذلك الوقت (نهاية الحرب الباردة، ونهاية التجربة الشيوعية، ونهاية التمييز العنصري في جنوب أفريقيا)، وقد ذكر في هذا السياق دراسة نوجنت الموسومة بـ"لفائف محروقة من الثورة" سنة ١٩٩٣ والتي تناولت الأحداث التي قادت للثورة في المكسيك وركزت بشكل كبير على طبيعة الحياة بالنسبة إلى أوضاع الفلاحين في المكسيك بعد الثورة، ولاحظ المؤلف أنها لا تتعلق بالثورة، ثم أشار إلى جهود شيري أورتنر الذي قام سنة ١٩٩٥ بتحديد دقيق لسلسلة اسماها "الرفض الاثنوغرافي" للتركيز على فكرة المقاومة ودراستها في الحقل السياسي، وعلق المؤلف على هذا النوع من الدراسات بكونه اتجه إلى التركيز على"التغيير من الأسفل" أو التغيير من القواعد، والتي تعطي اهتماما زائدا بالفئات المهمشة والوسائل التي يستخدمها المهمشون للمقامة والكفاح على المستوى الأدنى من مستويات الفعل السياسي.

يعرض المؤلف في كتابه ثلاثة أسباب ــ اعتبرها مقنعة ــ يبرر بها عدم مشاركة الأنثروبولوجيا على نطاق واسع في دراسة الثورات السياسية:

أولها ــ أن الثورات السياسية تحدث عادة في المجتمعات الكبيرة والمعقدة، والتي يوجد بها نظام سياسي أكبر لا بد من الإطاحة به، ويوجد بها كذلك درجة معينة من التمايز المؤسسي، وشيء من مفهوم المساءلة والشفافية السياسية. فالثورات في نظر المؤلف لا تحدث في جزر كيريوينا. ويشير المؤلف أنه لم تقع انعطافة الأنثروبولوجيين لدراسة هذا النوع من المجتمعات المعقدة والمركبة ودراسة "الدول" إلا في ثلاثينيات القرن العشرين مع أعمال روبرت ريدفيلد.

ثانيها ـ أن الثورات السياسية تحدث ضمن "السياسة الفوقية العليا" باصطلاح علماء السياسة أو الباحثين في العلاقات الدولية، وهو موضوع يقع بعيدا عن اهتمام الأنثروبولوجيا التي تركز على الأنماط والأشكال العادية واليومية من السلوك السياسي، وأن الاستثناء الذي حصل في دراسة جيمس سكوت الأنثروبولوجية الموسومة باسم: "أسلحة الضعيف" سنة ١٩٨٥، إنما تبررها الخلفية المعرفية للباحث بوصفه متخصصا أكاديميا في العلوم السياسية، وهي الدراسة التي شكلت نقلة نوعية في التنظير لفكرة المقاومة.

وثالثها ـ أن الذي يبرر عدم إعطاء الأنثرولوجيين اهتماما أثنوغرفيا ولو محدودا بالثورات السياسية، هو ما يتعلق بمنهجية التطبيق والبحث، فمن الصعب، إن لم يكن من المستحيل في الغالب التخطيط لدراسة ميدانية للسلوك الثوري، لأن الثورات غالبا ما تحدث بطريقة مفاجئة وخارج التوقع. فالأنثروبولوجيون ـ حسب الباحث ـ من الممكن أن يخططوا لدراسة ميدانية عن سلوك الفلاحين أو تنظيم تحركات الشباب في المنطق الحضرية، لكنهم لا يستطيعون فعل ذلك في الثورات السياسية. ففي اللحظة التي يكتشف فيها المرء ـ مجرد المرء وليس الباحث ـ أنه في أوضاع سياسية ثورية، فإن أول شيء يفكر فيه هو كيف ينجو من هذا الوضع في أسرع فرصة، فيكف يمكن للباحث أن يغامر بنفسه، وكيف يمكن لمشرف مسؤول أن يرسل طلابه للدكتوراه غلى منطقة خطرة، تهدد حياتهم؟

لماذا يمكن أن يكون للأنثروبولوجيا إضافة نوعية في دراسة الثورات السياسية؟

يضم هذا الكتب مقدمة وعشرة فصول، بنيت بشكل نسقي للانتهاء في الأخير إلى خلاصة مهمة تتعلق بحدود الدور الذي يمكن أن تقوم به الأنثروبولوجيا في دراسة الثورات السياسية.

في مقدمة الكتاب حاول المؤلف الإجابة عن سؤال إمكان وجود أنثروبولوجيا للثورات السياسية، وفي الفصل الأول المخصص لتعريف الثورات السياسية، انطلق المؤلف من حزمة من

التعاريف، لكي يفضي إلى قضية إسهام الأنثروبولوجيا في دراسة الثورات السياسية بالتركيز على اللحظات التي يكون فيها "الأسفل والأعلى" أو التغيير من القواعد والتغيير من الأعلى" نسبيا، وتكون المستويات الكلية والجزئية قد ذابت وتوحدت.

في الفصول اللاحقة، قدم المؤلف سردية مهمة لأهم الأدبيات التي قدمها منظرو الأنثروبولوجيا للاقتراب من موضوع الثورات السياسية، وأهم المفاهيم التي جعلوها مداخل لهذا الاقتراب، بدءا بدراسات مارسيل ماوس عن الثورة البلشفية، ودراسات فيكتور تيرنر التي ركزت على الدراما الاجتماعية والأزمة ووضعية المجاز للثورات السياسية، ودراسة غوستاف لوبوان وغابريل تارد وجورج سيمل ورينيه جيرارد وفان جينب التي جعلت من الجماهير والحشود موضوعا للأنثروبولوجيا، وركزت أيضا على مفهوم دور المحاكاة، ليضيف الباحث إلى ذلك دراسات اخرى حول سياسة الشارع والديناميات المكانية لتحريك الحشود وتعبئتهم (معاينة الثورات في مصر وتونس) ووضعية المجاز العامة ودور الميادين والساحات، وإفادته من أدبيات غيره خاصة مارسيل ماوس في موضوع القيادة الثورية ودور الحاوي، وأيضا دراسات باتسيون وتيريز بخصوص القيادة والحشود والكيفية التي تتم بها صناعة الانقسام في فترة الأزمة ووضعية المجاز، معرجا بذلك على مفهوم الشرعية وتشكل المعنى بواسطة الإصلاح والسلام، وكيفية إنهاء الثورة، لينتهي بعد ذلك كله إلى تقرير نوع الإضافة التي يمكن للأنثروبولوجيا أن تقدمها لدراسة الثورات السياسية.

وبالمجمل، يمكن القول بأن مرافعة المؤلف للدفاع أن الإسهام المعرفي المتميز الذي يمكن أن تقدمه الأنثروبولوجيا في دراسة الثورات السياسية تعددت أوجهه ومناحيه، فالأنثروبولوجيا -في نظر المؤلف- تسهم في تقديم فهم معمق لتكيكيات الثورة والتعبئة التي لا تقوم على الطبقة فقط، بل على الثقافة والعرق والرمز، وهي تساعد أيضا في إدارة التوقعات وفهم المحركات، حيث يمكن للأنثروبولوجيا أن تشرح بصورة عامة النزعات الثلاث (العاطفية والمعرفية والإدارية) التي تسيطر على الجماهير أثناء المراحل المختلفة للثورة، وأن إسهامها يأتي من زاوية الاهتمام بالتغييرات التي تحدث من الأسفل، إذ يمكن أن تشرح كيف أن الأعمال أو الأحداث المفردة

في فترات الحراك الثوري قد تؤدي- في وقت قصير جدا- إلى نتائج درامية مثيرة، كما يتمثل إسهامها في أنها تقدم فهما لطبيعة القيادة السياسية التي تنشأ في فترات الحراك الثوري وما بعده، وكيف ان فترات الانتقال التي تلي نجاح الاحتجاجات تحتاج إلى نوعية مختلفة من القادة، كما يتمثل إسهامها في قدرتها على مناقشة الرموز والمعاني في أي ثورة، بما يعيد الاعتبار للبعد الثقافي والإيديولوجي في نجاح الثورات عن طريق الحرب المعنوية والرمزية.

خلاصة:

بكلمة، رسالة المؤلف في كتابه، أن للأنثروبولوجيا كلمة في تفسير الثورات السياسية، وأن إسهامها يتجه إلى تقديم الفهم الكلي للثورات السياسية، وأن تحصيل التراكم المعرفي في مجال دراسة الثورات السياسية، لم يعد يقتصر على مخرجات العلوم الثلاثة (التاريخ وعلم الاجتماع وعلم السياسة) وإنما صار بإمكان الأنثروبولوجيا أن تبرر مشاركتها في صناعة التراكم المعرفي في هذا المجال.

مركز نهوض للدراسات والبحوث مركز بحثي يُعنى بقضايا الفكر والواقع، ويرفد الساحة الثقافية العربيّة بمعالجات بحثيّة رصينة لتجديد النظر التاريخي والسياسي والاجتماعي والديني، بما يخدم قضيّة «النهوض» المنشود.

يسعى المركز إلى توسيع فضاء الحوار الحرّ وتعميق النقاشات الفكريّة الجادّة، ملتزماً بأخلاق الاختلاف الإنساني وقيم البحث العلمي الرصين. ويجتهد في استشكال قضايا وأسئلة النهضة الحضارية والعمل على الإجابة عنها، مستثمراً في ذلك مستجدات المعارف العلمية والاجتماعيّة، على نحوٍ يصل بين مضامين الوحيّ وتصوّرات العلوم الإنسانية، ويكفل التفاعل الخلّاق بينهما.

المركز هو أحد المؤسسات التابعة لوقف نهوض لدراسات التنمية، وهو وقف عائلي (عائلة الزميع) تأسس في الكويت بتاريخ الخامس من يونيو من عام 1996م، ويسعى إلى المساهمة في تطوير الخطاب الفكري والثقافي والتنموي بدفعه إلى آفاق ومساحاتٍ جديدة.

مركز نهوض
للدراسات والبحوث

جميع الحقوق محفوظة 2025

All rights reserved © 2025